الفصل الثانى

المفهوم الدينى للتاريخ

ينظر الفكر الدينى إلى الوجود، كوناً وطبيعة وحياة، على أنه مؤلف من مستويين: الأول مادى يتجلى فى كل ما حولنا من مظاهر حية وجامدة، والثانى غيبى يقع وراء المادة ومظاهرها المتنوعة. الأول حادث ومتغير وقابل للفناء، والثانى قديم وثابت وأزلى. الأول واقع فى قبضة الزمن والتاريخ، والثانى يقع وراء الزمن والتاريخ ولكنه يتدخل فيهما ويحقق مقاصده من خلالهما. معنى هذا أن مفهوم الكون والإنسان يكمن خارج هذا التاريخ، أى خارج جدلية التاريخ نفسه، لأن هذا التاريخ مُسيَّر من قِبَل قدرة عُلوية توجهه وفق غايات معينة بعيدة عن الفهم البشرى حيناً وبادية له حيناً آخر (46).

وعلى ضوء ذلك، ينطلق الفكر الدينى فى تصوره للبدايات الأولى من اللحظة التى خرجت عندها الألوهية من كمونها وتجلت فى الزمان وفى المكان الدنيويين، مبتدئة فعالياتها فى الأزمنة الأسطورية الأولى، أزمنة الخلق والتكوين. وهنا تحولت الألوهية من مفهوم نظرى إلى مفهوم عملى، وتجلت فى شخصية ذات إرادة وقصد وفعل، وفى إله يعلن عن نفسه فى سياق زمنى تاريخى، مبتدءاً تاريخاً مقدساً يشمل العالم والإنسان. وهناك ثلاثة أنماط لصيرورة هذا التاريخ المقدس فى الفكر الدينى: النمط الأول هو "التاريخ المفتوح"، حيث يسير الزمن من لحظة البدايات نحو مستقبل بلا نهاية. النمط الثانى هو "التاريخ الدورى" حيث يسير الزمن فى دوائر مغلقة

يتبع بعضها بعضاً إلى ما لا نهاية، ومع اكتمال كل دائرة ينهار الكون القديم ليبدأ كون جديد مع انطلاق الدائرة الثانية. والنمط الثالث هو "التاريخ الدينامى الذى يتطور - بشكل خطي - منذ لحظة الخلق، عبر عدد من المراحل إلى لحظة النهاية حيث ينتهى التاريخ وتتفتح الأبدية؛ ويتم تحويل العالم القديم - بعد عملية تطهير شاملة - إلى حالة من الكمال تليق بخلق الله. هنا تنتهى ثنائية المقدس والدنيوى، والله والعالم، والروح والمادة، والغيبى والمنظور، والخير والشر، وتنوب أطرافها فى وحدة لا ازدواجية فيها إلى الأبد [47].

والديانة اليهودية من أكثر الديانات التى تتماهى فيها الحدود الفاصلة بين المطلق والنسبى، أو بين المقدس والدنيوى، فالقداسة فى هذه الديانة لا تقتصر على أوامر الإله فحسب وإنما تشمل أيضاً شروح وتعليقات الحاخامات؛ ومن هنا تنقسم الشريعة اليهودية إلى شقين رئيسيين هما: الشريعة المكتوبة والشريعة الشفهية. الشريعة المكتوبة تضم - حسب الفهم اليهودى - مجمل العهد القديم الذى يتكون بدوره من ثلاثة أقسام رئيسية: "التوراة"، و"الأنبياء"، و"المكتوبات". وتمثل هذه الأقسام الثلاثة مراحل تاريخية شديدة التباين يختلف كل منها اختلافاً شاسعاً، ونجد مثل هذه التباينات فى داخل النص التوراتى [48].

وقد أثبتت مدارس نقد العهد القديم الحديثة أن النص التوراتى يمثل مرحلة تاريخية مختلفة [49]، ويتكون من أربعة مصادر هى: "اليهوى" و"الألوهيمى"، و"التثنوى"، و"الكهنوتى".

1- المصدر اليهوى: ويحمل هذا المصدر اسم الإله "يهوه" الذى يعد إلهاً خاصاً لبنى إسرائيل دون غيرهم، ويعود تاريخ هذا المصدر إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

2- المصدر الألوهيمى: ويُنسب هذا المصدر إلى اسم الإله "ألوهيم". وتختلف دلالات مسمى "ألوهيم" عن مسمى "يهوه"، إذ إن "ألوهيم" ليس إلهاً قبلياً وإنما إله لكل الكون؛ وقد كان هذا الاسم منتشراً فى مملكة إسرائيل الشمالية. ويعود تاريخ هذا المصدر إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

3- المصدر التثنوى: وهذا المصدر - فى جوهره - مصدر تشريعى بحت، صادر عن وسط مثقف لا يلقى بالاً إلى القصص الشعبى، بقدر ما يهدف إلى التوجيه والتعليم والتطوير عن طريق سن القوانين. ويتجلى هذا المصدر - بوضوح - فى آخر أسفار التوراة أى سفر "التثنية"، ويعود إلى القرن السابع قبل الميلاد.

4- المصدر الكهنوتى: يرجع تاريخ هذا المصدر إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أضيف إلى نص التوراة فى عهد "عزرا" و"نحميا" أى بعد السبى البابلى؛ وهى فترة وصل فيها الكهنة إلى كامل قوتهم وقمة سيطرتهم على مقدرات اليهود [50].

أما باقى أسفار العهد القديم والتى تنتمى إلى ما يُعرف بسفر "الأنبياء" و"المكتوبات" فتقدم سردًا للأحداث التى وقعت لبنى إسرائيل بعد موت موسى منذ دخولهم أرض فلسطين إلى أن أخرجوا منها فى إطار السبى البابلى، كما أنها تتضمن مجموعة أسفار يغلب عليها الطابع الأدبى؛ وتغطى فترة زمنية تمتد - تقريباً - من عام 1300 حتى عام 300 ق.م[51].

انطلاقاً من هذه الرؤية إلى التاريخ التوراتى، لم يكن اللاهوت المسيحى ينظر إلى الأحداث السابقة على الميلاد إلا بوصفها فترة مظلمة، لم يعرف الناس خلالها الله إلا عن طريق ظلال قاتمة لا تعكس مجده الحقيقى؛ بما فى

ذلك كامل الفترة التى تغطيها أحداث العهد القديم. فالتاريخ يبدأ بآدم، ثم يبدأ بداية جديدة بـ"يسوع" المسيح، والزمن الفاصل بين هاتين البدايتين ليس إلا شكلاً من أشكال الجاهلية الإنسانية؛ كان العالم - خلاله - ينتظر قدوم المخلص. وهكذا عكس ميلاد "يسوع" المسيح مبدأ السبب والنتيجة فى الصيرورة التاريخية، فبدلاً من أن يُقرأ الحاضر على ضوء الماضى - بوصفه نتيجة منطقية له - صار الحاضر الذى هو تجسد "المسيح" ونتائجه، مُفسراً لكل الأحداث الماضية التى تم فهمها على ضوء هذا الحدث. وأصبح التاريخ يُقرأ ويفسر من ميلاد المسيح صعودًا نحو البدايات ومنه هبوطًا نحو نهاية الزمان. أما أحداث العهد القديم، فقد تحولت من تاريخ يقص أحداثاً متتابعة ذات معنى وقيمة فى حدا ذاتها، إلى سلسلة من الرموز والإشارات التى تبشر بـ"المسيح" وكنيسته [52].

ومن هنا، فقد قسم مؤرخو العصر الوسيط "التاريخ" إلى فترات، حدث فى القرن الثانى عشر أن قسم "يواقيم الفلوري "التاريخ" إلى فترات: عصر الأب أو الله غير المجسد، ويقصد به العصر السابق على المسيحية، ثم عصر الأبن أو عصر المسيحية، ثم عصر الروح القدس الذى قدر له أن يبدأ فى المستقبل. وهذه الإشارة إلى المستقبل تنم عن خاصية هامة تميزت بها كتابة "التاريخ" فى العصر الوسيط، وهذه الخاصية تبين أن "التاريخ" ينطوى على خطة موضوعية عُرفت عن طريق الوحى، أى أنها كانت جزءًا مما أوحى به "يسوع" المسيح للإنسان فيما يختص بـ"الله". وهذا الاتجاه لا يلقى ضوءًا على أفعال الله فى الماضى فحسب، وإنما يلقى ضوءًا على ما يعتزم "الله" أن يفعله فى المستقبل أيضاً. معنى ذلك أن الوحى المسيحى قد أعطانا فكرة عن "تاريخ" العالم كله منذ بدء الخليقة، فى الماضى حتى نهايتها فى المستقبل[53].

وقد ظهرت بين الكتَّاب المسيحيين مؤلفات تاريخية كثيرة لم يكن يحلم أحد - حتى ذلك الوقت - باتساعها وشمولها، فهى تشمل الوقائع التى يمكن الحصول عليها وتنظمها كلها فى ضوء مبدأ واحد [54]. فنجد مثلاً، القديس "أوغسطين" ST.Augustine (354 - 430) يتحدث فى كتابه "مدينة الله" عن تاريخ الإنسانية الذى قسمه إلى ملكوتين: ملكوت الله وملكوت الشيطان، وهما فى صراع دائم، صراع الخير والشر. وقد بقى اتجاه تطور التاريخ - فى نظره - ينحو إلى الحسم النهائى فى هذا الصراع، وسيتم الحسم بانتصار الخير؛ لأن الله قد سبق وحدد للتاريخ ذاك الحسم وهذا الانتصار. ومر هذا الصراع فى ست فترات إلى أن وصل إلى ظهور "المسيح" ومعه بدأت الفترة الأخيرة التى ستتم يوم القيامة حتى يفصل الأخيار عن الأشرار. وسيطر هذا التصور لتاريخ الإنسانية على الفكر المسيحى فى القرون اللاحقة وحتى على كبار لاهوتي وفلاسفة القرون الوسطى[55].

أما فى دولة الإسلام، فإن الكتابة التاريخية تطورت تطورًا هائلاً وشملت مناحى الحياة المختلفة وسجلت دقائقها، وترجمت لأعلامها. وكان من بين صور التأليف التاريخى - التى شاعت منذ منتصف القرن الثالث الهجرى - ما يُعرف بـ"التاريخ المحلى"، حيث يعمد المؤرخ إلى الكتابة عن مدينته ويؤرخ لها دون غيرها من المدن؛ اعتزازاً بها وتسجيلاً لحركتها الفكرية. وظهرت سلسلة من تواريخ المدن توفر على كتابتها عدد من أبنائها، حتى أضحت كتابة هذه التواريخ البلدانية تقليدًا لدى العلماء تتوارثه الأجيال. وتوالت الكتب التى تتناول المدن الكبيرة مثل: بغداد، ودمشق، والقاهرة، ومكة، وحلب ..... [56] وهكذا نجد "تاريخ" بغداد للخطيب البغدادى (392 - 462 هـ) الذى جمع فيه خلاصة ترجمة العلماء الذين عرفتهم "بغداد" حتى أواسط القرن الخامس الهجرى، وأيضاً نجد "تاريخ" دمشق لابن عساكر

(499 - 571 هـ)، و"تاريخ" حلب لابن العديم (588-734 هـ)، و"تواريخ" القاهرة وخططها لـ"المقريزى" (760 - 845 هـ) و"السيوطى" (849 - 911 هـ) وغيرهم. ومهما تباينت المحاور التى دارت حولها "تاريخ" هذه المدن - سواء اتخذت التراجم أو الخطط أو الحوليات محاور لها - فإنها جميعاً تحوى قدراً كبيراً من المعلومات الهامة عن الحياة الاجتماعية فضلاً عن الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ... مما لا نظير له فى أى ركن آخر من أركان العالم فى العصور الوسطى [57].

وفى ضوء ما سبق وبعيداً عن مفهوم الكتابة التاريخية لتاريخ البلدان الإسلامية، يمكن تقسيم "تاريخ" الإسلام إلى مراحل ست [58]:

الأولى: مرحلة بناء الجماعة الإسلامية التى بناها الرسول ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً فى مكة والمدينة والتى قام بها مجتمع موحد فى الجزيرة العربية كلها. وإلى هذه الجماعة تعزى تلك القوة التى وُصفت بأنها "معجزة" فى سبيل إذاعة الإسلام فى أطراف الأرض.

الثانية: المرحلة التى توسع فيها الإسلام وامتد من حدود الصين إلى أطراف فرنسا، وهذه المرحلة تمتد إلى عام 114 تقريباً من الناحية التاريخية.

الثالثة: مرحلة بناء الفكر الإسلامى فى مواجهة محاولات تحريفه - وهذه المرحلة مزدوجة النماء فى مجال الثقافة والمدنية معاً، وفيها ظهر بناة الدول وقادة الفكر. ويمكن أن توصف تاريخياً بأنها مرحلة تمتد من بدء حركة التدوين إلى الحرب الصليبية الأولى 1096 م 489 هـ.

الرابعة: مرحلة أزمة الإسلام والغزو الخارجى، أى غزوات الصليبيين والتتار ومؤامرات الباطنية. وفى هذه المرحلة قامت المملكة اللاتينية فى قلب العالم الإسلامى، ثم تقلصت وانتهت كما انتهت غزوات المغول؛ واقتحم

الإسلام آفاقاً جديدة فى جنوب شرق آسيا وقلب أفريقيا. وتمتد هذه المرحلة تاريخياً إلى قيام الدولة العثمانية 666 - 1300 واندماج القوة العربية معها فى عام 927 هـ - 1517م.

الخامسة: ظهور مرحلة الوحدات الثلاث فى عالم الإسلام: (1) الدولة العثمانية فى منطقة آسيا الصغرى والعالم العربى. (2) الدولة الصفوية فى فارس. (3) دولة المغول فى الهند. وتمتد هذه المرحلة تاريخياً حتى عام 1246 هـ - 1830م.

السادسة: مرحلة التوسع والامتداد، ونمو الفكر الإسلامى وتطوره وأثره فى العالم الخارجى.

* * * *

obeikan.com